الرؤية الإسلامية فى رواية "أولاد حارتنا" لنجيب محفوظ من الوجهة الأدبية

دكتور / محمد أحمد محمد حسن مخلوف
مدرس الادب والنقد فى كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر بأسيوط

أثارت هذه الرواية (١) دهشا لدى الجماهير العريضة من المثقفين ، لأن هذه الرواية كانت مظللة بظلال الرمز كما أنها طرقت بعض الأفكار العقدية التى صاغها نجيب محفوظ صياغة فنية فلسفية وهذه الصياغة الجديدة تعد بمثابة « الركيزة الجديدة التى حاول نجيب أن يحلها مكان الركيزة القديمة هى العلم ولذلك فزعت الرجعية فى مصر فزعا شديدا حين كانت « أولاد حارتنا » تنشر يوميا فى جريدة الأهرام خلال الفترة الواقعة بين ٢١ سبتمبر عام ١٩٥٩ و ٢٥ ديسمبر من نفس العـــام .

---

(١) خلاصة هذه الرواية أن الحارة كانت ملكا لرجل يدعى الجبلاوى صاحب قوة وسر خفى ثم اختفى وترك أولادا فاستولى أحدهم على نظارة الوقف واستبد الفتوات بالناس فجاء كل من جبل ورفاعة وقاســم فى مراحل زمنية متتالية كى يحققوا دعوة جدهم فنادوا بالعدل والرجوع الى الاحتكام الى وصايا الجبلاوى ثم بعد وفاتهم جاء عرفة الذى يمثل التقدم العلمى كى يبحث عن المجهول ويحقق العدل لكنه عجز عن ذلك لأنه تحول الى مســاعد للنــاظر والفتوات ثم ترك المؤلف الأمل معلقا . على عرفة فى المستقبل .

وليس من قبيل المصادفة أن تنتهز الرجعية فرصة ملائمة فى ذلك الحين هى أزمة الديمقراطية التى شملت أرجاء العالم العربى فتوجه ضربتها — الأدبية — الى أول عمل أدبى مباشر — بالرغم من رمزيته — برفع شعارات العلم والتقدم والاشتراكية والحرية »(٢) •

ولكننى لا استسيغ هذا التعبير المذكور الذى يصور فيه صاحبه وهو — على شكرى — المسلمين فى صورة الرجعيين لأن المسلمين هم الذين فزعوا من صدور هذه الرواية • وعدم استساغتى فرجعها الى أن المسلمين لا يرفضون العلم لأنه لا يتعارض مع الشريعة الاسلاميه ولا يرتضون أن يكون العلم بديلا لها ولا يرفضون التقدم الا اذا كان سببا من اسباب الدمار الشامل والاشتراكية محل نظر لدى المسلمين لان الاسلام لا يحدد الملكية والاسلام لا يرفض الحريه الا اذا تحولت الافعال الى فوضى •

ويردد غالى شكرى المقولة المذكورة مرة ثانية فى ثنايا عرض وجهة نظره التى فيها : « ان نجيب محفوظ كان أول فنان عربى يقوم بتعرية فكريه كامله للذات على الملأ لقد سبق له أن قام بهذه التعرية فى الثلاثية بواسطة عملية الاسقاط التى قام بها على شخصية كمال عبد الجواد ، لكنه هنا يقوم بعمليه التعرية فى مرحلة عالية من النضج الفكرى الذى يلزمه بتغيير جوهر الحضارة التى ينتمى اليها أى أن هذا النضج أو هذه التعريه تدعوه الى أن يشارك فى تقبل المجتمع من عصور التخلف الحضارى والتقاليد غير الديمقراطية فى أسلوب الحكم الى عصر العلم والحرية والاشتراكيه وهذا ما نسب فى أن تنزعج قطاعات من الجماهير

---

(٢) المنتمى ص ٢٣٩ لغالى شكرى ط — دار المعارف بمصر طبع ١٩٦٩ م •

قبل السلطة وأن ينزعج الازهر قبل السلطة حتى انه لم يحدث قط فى تاريخنا الأدبى أن تقابل رواية بهذا الانزعاج الشديد الذى يؤدى الى تأجير نشرها حتى الآن(٣) ربما مصدر الانزعاج الاول هو الشجاعة الاسطورية التى بدا فيها المؤلف وهو يعرى نفسه على الملأ تعرية كاملة والمصدر الآخر الذى لا يقل عنه أهميته هو تعريته للمجتمع والحضارة التى يعيشها تعرية كاملة والمصدر الثالث هو أن نبضات قلب نجيب محفوظ فى هذه الرواية كانت تدق تجاوبا مع قلب المنتمى اليسارى المصرى(٤) .

ومحل النظر هنا أنه يريد أن يجعل رؤية الأزهر فى هذه الرواية منطابقة مع رؤية الرجعيين لها لكننى أود أن أقول : ان الأزهر لم تكن أفكاره رجعية كما يتوهم عالى شكرى واسما الذى حدث هو أن الأزهر لم يستسغ فكرة نجيب محفوظ فى أن العلم له الأهمية الكبرى فى صلاح الكون بعيدا عن الاتكاء على أسس الدين الاسلامى ومن هنا أبدى الأزهر وجهة نظر فقط ولم يكن القصد هو مصادرة الفكر العقدى لأى مبدع أو فنان أو ناقد ومن حق الأزهر أن يبدى وجهة نظره فى القضايا العقدية والفكرية والفنية متكئا على أسس الدين الاسلامى فابداء وجهة النظر بالرفض لفكرة من الأفكار لا يعنى المصادرة لأن المصادرة الغاء

---

(٣) أى وقت صدور الطبعة الأولى من كتاب المنتمى لغالى شكرى وأشار غالى فى هامش ص ٢٦٥ عن المنتمى الى أن هذه الرواية نشرت فى بيروت عن دار الآداب اللبنانية ولم يسمح بتوزيعها داخل معظم بلدان العالم العربى لكن غالى شكرى أشار فى ص ٢٣٩ من المنتمى الى أن هذه الرواية كانت « تنشر يوميا فى جريدة الأهرام خلال الفترة الواقعة بين ٢١ سبتمبر عام ١٩٥٩ و ٢٥ ديسمبر من نفس العام » .

(٤) المنتمى ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

والنقاد الأزهريون لا يصادرون أفكار الذين اختلفوا معهم وهنا أريد أن أسجل مقولة أعجبتنى للدكتور / محمد حمد العزب هى : « اننى لا أصادر الفكر النقيض ولا يمكن أن أدعو الى مصادرته لأن معنى ذلك اذا حدث أننى أنفى نفس من العصر الذى أحياه عن جهة واننى أصادر رافد الخصب الحقيقى — وان نقيضا لا يهم — فى حقول فكرنا العقائدى وفنا العقائدى جميعا من جهة أخرى وتلك جريمة لا يتصدى للعمل فى رهجها الا المهرجون »(٥) .

اقول أن النقاد الاسلاميين يرفضون والا يتوافق مع الأدب الاسلامى ولا يصادرونه ، لأن الرأى النقيض للفكر الاسلامى اذا صادره النقاد الاسلاميون فانهم فى هذه الحالة يعملون على لفت الأنظار الى قوة هذا الفكر النقيض والى أهميته وبذلك تتشوق النفوس الى مطالعة هذا الفكر النقيض لأن النفس تجرى دائما خلف الممنوع وتهتم دائما بالتعرف على الأشياء المخفيه بدافع غريزى وكذلك تجد رواية « أولاد حارتنا » قد انتشرت على مستوى العالم عن طريق احدى المطابع اللبنانيه وليس السبب فى ذيوعها أن الأزهر هو الذى صادرها ولكن ربما كان السبب أن هذه الرواية قد فسرت على حد قول الدكتور / محمد حسن عبد الله « من منظور سياسى وقد حدثنا الكاتب — أى نجيب محفوظ — مواجهه بمثل ما تحدث به الى صحيفة الأهرام على وجه التقريب فذكر أنه كان يتجه بهذه الرواية الى رجال الثورة الذين يحكمون مصر ... أما الاصطرار — الى الرمز — فقد كان تحت مخاوف الرقابة »(٦) .

---

(٥) فى الفكر الاسلامى من الوجهة الأدبية ص ١٧٨ طبع المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ١٩٨٣م .

(٦) الاسلامية والروحية فى أدب نجيب محفوظ ص ٢٦٤ د/ محمد حسن عبد الله طبع دار مصر للطباعة ١٩٧٨م .

وادن فالنقاد الأزهريون أو النقاد المسلمون لم يصادروا هذه الرواية ولكنها كانت محل نظر من الهيئة السياسية التى كانت تستعين بآراء الأزهر فى القضايا الفكرية والعقدية التى وردت فى ثنايا الأعمال الفنية .

ومن هنا حرص نجيب محفوظ على اسقاط هذه الرواية من قائمة أعماله الفنية الى أن أتيحت الفرصة الى طبع هذه الرواية ١٩٦٧ م

وعلى أية حالة قد استخدم نجيب محفوظ الرمز فى هذه الرواية بطريقة ذكية تصل الى أبعد مراحل الذكاء لدرجة أن النقاد أخذوا يتحاورون مع نجيب محفوظ شفهيا كى يقر لهم بالرموز اليه على وجه التصريح فلم يتضح عدا الشان عن المقصود بهذه الرموز التى وردت فى ثنايا هذه الرواية .

وكانت أولى المشكلات الرمزية فى هذه الرواية هى مشكلة الرمز فى العنوان « أولاد حارتنا » فالحارة يمكن أن تكون البشرية بأسرها ويمكن أن تكون مصر وحدها ويمكن أن تكون رمزا مزدوجا فهى تجمع بين خصائص التطور الانسانى العام وبين ملامح الأزمة الحضارية التى تعيشها مصر »(٧) .

فصاحب هذا الاستنباط لم يثبت على مرموز اليه موحد أو معين ، لأن الأحداث والأوصاف والشخصيات والمواقف التى وردت داخل الرواية لا ترجح استنباطا محددا على استنباط آخر فلم يستطع هذا الناقد أن يحدد أن المرموز اليه فى العنوان هو مصر وحدها أو هو الانسانية جميعها ولذلك تجده يتردد مرة ثانية فى هذا الاستنباط بأن

---

(٧) المنتمى ص ٢٤٠ لغالى شكرى .

الحارة « قد تكون هي الانسانية فى مختلف مراحل تطورها منذ المجتمع المتماسك الأول الى التقسيم الكبير الأول فى حياة البشر الذى أحالهم الى سادة وعبيد الى عصرنا العلمى الحديث الذى يقدم الاشتراكية حلا حاسما لما سماه الانسان والأسماء الانسانية ـ على هذا الوجه ـ ليست المشكلة الاجتماعية محسب بل المشكلة البيولوجية أيضا فثمة خصمان متوازيان يلتقيان حينا ويفترقان أحيانا هما علاقة الانسان بسر هذا الكون أو علاقة الفرد بالمجموع غير أن الحارة أيضا ـ على وجهها الآخر ـ هى مصر فى أحداث مراحل تطورها التى تجمع فى تكوينها عصارة ماضينا كله بل ان هذا الماضى يشترك فى خلق الحاضر بكل متناقضاته ومفرقاته العديدة ويحمل له فى الوقت نفسه الحل الناجز لهذه المتناقضات الحل المتمثل فى العلم والاشتراكية وسواء كان نجيب محفوظ يعنى بحارته الانسانية أو مصر أو كلاهما [أ] معا فان قضية « الدين والعلم » هى المحور الرئيسى فى الرواية »(٨) وهذا الناقد يناقض ما ذكره هنا حينما أراد أن يدلك فى موطن غير هذا أن المراد بالحارة هى مصر بأدلة عن بعض الأحاديث التى تعرض لها نجيب محفوظ فى فنه الروائى وحاول الناقد أن يبطل ما رآه عن أن المراد بالحارة البشرية جمعاء، حينما ذكر عبارات لنجيب محفوظ «هى عبارات صريحة لا التواء فيها ولا يجدى معها التفسير بأنها رمز الى حال البشرية جمعاء [ب] ـ اذا كان هذا صحيحا فان صدورها عن كاتب مصرى يقول: « بتنا من الفقر كالمتسولين له مغزاه الشديد بوضوح »(٩)

---

(٨) المنتمى ص ٢٤٠ .

(٩) المنتمى ص ٢٤٢ .

فهذا الناقد يريد أن ينفى أن يكون المقصود بالجارة هو البشرية جمعاء لأنه يستنبط من كلمة نجيب محفوظ « بيتنا » أن المراد بهذا الجمع هو المصريون الذين ينتمى اليهم المؤلف الذى نطق بهذه الكلمة وربما الشعقيد الرمزى فى رواية « أولاد حارتنا » سببا فى أن أصحاب المذاهب الفكرية أخذوا يفسرون رمزيتها بما يتفق مع أصحاب كل مذهب لأن هذه الرواية قد أثارت من الغط كثيرا فى دلالتها العقدية الدينية حتى أسقطها مؤلفها من قائمة مؤلفاته التى يكتفى بكتبه وهى لم تطبع فى مصر الى الآن(١٠) وان نشرت سلسلة لأول مرة بها(١١) وهى تثير بالفعل الكثير من الجدل والكثير من الشك واذ يحتسبها كل فريق بين مكاسبه فان النقاد الماديين يحاولون تحنيطها لصالح اتجاههم الفكرى بالتركيز على جانب واهمال جوانب أخرى ليس من السهل الغض من أهميتها بل قد يبالغ بعضهم فيحاول أن ينزع عن الرواية أساسها الفكرى تمهيدا لنزع مفهومها الرمزى والباسها ثيابا جديدة أعدت لها من قبل انها عند صاحب التأملات فى أدب نجيب محفوظ(١٢) ليست كما يقال تاريخا للبشرية وليست كذلك تاريخا لمصر وانما هى توكيد للمعنى الانسانى الخالد للأديان توكيد أن جوهر الدين هو العدالة

---

(١٠) يقصد صاحب هذا النص بذلك الوقت الذى طبع فيه كتابه: الاسلامية والروحية فى أدب نجيب محفوظ وهذا الوقت ١٩٧٢م وهى الطبعة الأولى منه ٠

(١١) يقصد صاحب النص أنها نشرت فى مصر فى جريدة الأهرام سنة ١٩٥٩ فى حلقات ٠

(١٢) صاحب التأملات فى أدب نجيب محفوظ هو الأستاذ /محمود أمين العالم ٠

هو الأمن هو الكرامة هو المحبة هو الخير هو التقدم للانسان(١٣) فالأستاذ / محمود أمين العالم صاحب التأملات فى أدب نجيب محفوظ يفسر « أولاد حارتنا » على أنها دعوة للاهتمام بشأن التقدم العلمى للانسان أو أنها ايحاء الى القيمه الكبرى للعلم التى يمكن أن يتكىء عليها الانسان فى حل القضايا الكونية والميتافيزقيه هذا الاستنباط قد استنبطه الدكتور / محمد حسن عبد الله من تفسير الأستاذ / محمود أمين العالم المذكور ولذلك يصور لنا الدكتور / محمد حسن عبد الله هذا الاستنباط وينقده بما يلى : « نحن لن نختلف حول جوهر الدين ولكن حين يقال ان الروايه « توكيد » كذلك بأن هذا الجوهر الانسانى للدين يجعل من العلم امتدادا واستمرارا لرسالة الأديان فان هذه العبارة المعسولة التى لا يمكن أن يستوعب كافة معطيات الرواية ستبدو شديدة الخطر لأنها توحى بأن العلم بديل للدين فهو امتداد له واستمرار وهذا يعنى أنه ورثة واستبد بالمستقبل دونه واستمر على حين ذوى الدين وتوقف ولا يعنينا هذا كثيرا أن يقال ان الأديان أدت دورها فى مرحلتها فهذا دم يلبس ثياب المدح وهجوم بزعم الانصاف والدقة فالأديان بالنسبة للانسان ليست درجة وانما هى حقيقة الانسان وجوهره »(١٤) .

وهنا لا أختلف مع الأستاذ / محمود أمين العالم اذا كان يقصد أن الدين هو الذى يصدر العدل والأمن والكرامة والحرية والمحبةوالخير والتقدم للانسان فالدين هو الأساس الذى لا يمكن الاستغناء عنه بأى حال من الأحوال والدين لا يتعارض مع هذه المعانى الانسانية النبيلة

---

(١٣) الاسلامية والروحية فى أدب نجيب محفوظ ص ٢٩١ ، ٢٩٢ د/ محمد حسن عبد الله .

(١٤) الاسلامية والروحية فى أدب نجيب محفوظ ص ٢٩٢ .

لأن أسعاعاتها مقتبسة منه أما اذا كان الاستاذ / محفوظ أمين العالم يقصد أنه يمكن أن يكون التقدم العلمى للانسان بديلا للدين فهذا لا وافق عليه لأن العلم وحده يعجز عن أن يصل بالانسان الى معرفة الخالق ولا يستطيع العلم ان يتعرف على الاسرار الغيبية فيما وراء الكون كما أنه يعجز عن التعرف على أحوال الانسان بعد الموت زد على ذلك أن العلم من صنع البشر والبشر يعتريهم القصور ولا يستطيع أحد أن ينكر ذلك كما أن النتائج العلمية التجريبية خاضعة للاحتمالات والاحتمالات تؤدى الى تصديق قابل للتغيير أما الدين فانه يدعونا الى اليقين بالغيبيات والاطمئنان على صحة ما يدعو اليه « وبالآخرة هم يوقنون »(١٥) .

ونجيب محفوظ نفسه لم يستطع أن يجعل من العلم أداة قادرة على الوصول الى أسرار ما بعد الموت فى روايته وليس معنى ذلك أننى أريد أن أنفى عبقرية نجيب محفوظ فى بنائه الفنى الروائى حينما لم يستطع أن يصل الى المجهول بالعلم « لأن نجيب محفوظ ثروة قومية وأدبية على مستوى فنى لا أجادل فى ذلك على الاطلاق ولكنه على مستوى عقائدى واحد من ملايين الراضعين على سفوح القلق الوجودى بلا قرار »(١٦) .

ونجيب محفوظ نفسه يعترف بأن المحاولات التى لا تستند الى الدين فى أحكامها لا تصلح للعبادة على الاطلاق ولذلك يقول صراحة فى احدى رسائله:«لعل الاضطراب الناشىء» من قراءة أدبى أحيانا مصدره

---

(١٥) سورة البقرة من الآية ٤ .

(١٦) فى الفكر الاسلامى من الوجهة الأدبية ص ١٨٢ ـ ١٨٣ د/ محمد أحمد العزب .

أن قلبى يجمع بين التطلع لله والايمان بالعلم والايثار للاشتراكية ومحاولة الجمع بين الله والاشتراكية مثار للظن بالالحاد عند قوم وبالمحافظة عند آخرين وطالما عجبت من أن تتخذ الفلسفة الشيوعية دينا اذا أننى بصفتى تلميذا للفلسفة أعلم أنها أبنية تتجد مع تطور الزمن ولا تصلح للعباده على الاطلاق أما ما يثير اعجابى فى الشيوعية فهو عدالتها الاجتماعية المطلقة والتى لم تطبق بعد فى روسيا نفسها »(١٧) .

فنجيب محفوظ يشعر أنه متهم فى عقيدته لدى القارىء أو المتلقى وقد تسبب فى هذا الاتهام نجيب محفوظ نفسه لأنه كان دائما يحرص فى فنه على التمويه على القارىء وهذا التمويه يجعل الناقد القارىء فى حيرة من ناحية الحكم على عقيدة نجيب محفوظ ولننى حينما أريد أن أصدر رأيى فى المقصود من الرمز فى عنوان « أولاد حارتنا » فاننى ألجأ الى تصريح نجيب محفوظ نفسه فى الحوار الذى أقامه معه كرم جبر فى مجلة روز اليوسف فى الوقت الذى حصل فيه نجيب محفوظ على جائزة نوبل العالمية فى الأدب وهذا التصريح يعد بمثابة اعتراف خطير هو « أن الرواية لها بعد واقعى عبارة عن حارة وناس وهم فى النهاية يعكسون سيرة تستدعى معرفة أسباب تواجد هذين المستويين »

هذا الاعتراف يشير الى أن المقصود بالحارة ليس وانما القصد هو تنكير الحارة وبالتالى جاءت مجموعة الناس تسكن هذه الحارة منكرة فينتج عن ذلك التعميم . وهنا أقول : ربما كان من بواعث هذا الاعتراف أن نجيب محفوظ أراد أن يستريح النقاد من عناء بحثهم فى

---

(١٧) الاسلامية والروحية فى أدب نجيب محفوظ ص ١٦ د/ محمد حسن عبد الله ط ١٩٧٨م .

المقصود بحارته فى هذه الرواية بعد حصوله على جائزة نوبل أى بعد مرور ثلاثين عاما على تأليفها وربما كان باعثه أن نجيب محفوظ كان مهددا بالضرب بالجنزير حينما افتى الدكتور / عمر عبد الرحمن بقتل نجيب محفوظ نظرا لارتداده وكانت هذه الفتوى بعد حصـــول نجيب محفوظ على جائزة نوبل •

وهذا الاعتراف الخطير كان سببا من أسباب كتابتى هذا البحث لأن نجيب محفوظ كان قبل حصوله على جائزة نوبل متمسكا بعـــدم افصاحه الصريح عن المقصود بالحارة فى روايته فكان يموه على النقاد والقراء بطريقة لافنه للنظر جعلت النقاد يترددون فى أحكامهم وقدلاحظ نجيب هذا التردد الذى وقع فيه بعض النقاد فقال قبل حصـــوله على على جائزة نوبل : « كتبت عن الحارة كحارة وكتبت عن الحارة كوطن وكتبت عن الحارة كالوطن الأكبر أو البشرية فالحارة بحبى لها جعلت منها مدخلى الى أى تعبير وقد أخطأ البعض فظن أننى أكرر نفسى »(١٨)

هنا ذكر لنا أن بعض النقاد أخطأ فى تحديد المقصود بالحارة عند نجيب محفوظ وكان السبب فى ذلك أن نجيبا لم يحدد المقصود بالحارة فى كل عمل فنى من رواياته فاصدر كاملة على بعض النقاد أنهم أخطأوا حينما لجأوا الى الظن بأنه وقع فى التكرار ولكننى أحسب أن السبب فى ظنون النقاد التى وقعوا فيها هو نجيب محفوظ نفسه بدليل أنـــه أفصح عن رؤيته المقصودة من كلمة « أولاد حارتنا » بعد أن شعر أنه سوف يقتل بخنجر ولذلك تجده يصرح فى حـــوار له مع كرم جبر فى السنة التى حصل فيها على جائزة نوبل بالآتى : « أما بالنسبة لأولاد حارتنا فلم تثر الضجة حولها الا فى الوقت الراهن وبالتحديد بعد فوزى

---

(١٨) نجيب محفوظ حياته وأدبه ص ٨٩ لنبيل فرج •

بجائزة نوبل رغم أنها متداولة منذ ٣٠ عاما في جميع البلاد العربية وحتى اسلامية وكل من كتبوا عنها لم يجدوا فيها مساسا بالاديان او الرسل فلماذا يظهر بعد الموقف المضاد الآن ؟ لقد قرأ شيوخ الازهر القصة على ضوء عرائض اتهام وشكاوى وصلت بعد نشرها في الاهرام ومن يقرأ شيئا رمزيا في اطار اتهام مسبق سيجد ـ غالبا ـ ما يؤيد الاتهام وخصوصا أن الشيوخ ليسوا قراء روايات وانما متخصصون في الشريعة والفقه وأصول الدين قراء كتب وليسوا قراء روايات قرأوها باعتبارها تاريخا وليس واقعا يرمز الى عالم آخر لذلك كانت كل انتقاداتهم خارجة عن الموضوع » .

هذا التصريح الذى صرح به نجيب محفوظ الى كرم جبر أود أن أناقشه بالآتى :

لماذا لم يوضح نجيب محفوظ أن « أولاد حارتنا » واقع يرمز الى عالم آخر فى الوقت الذى نشرت فيه هذه الرواية فى حلقات فى ثنايا جريدة الأهرام سنة ١٩٥٩ م ؟

لماذا لم يرد على شيوخ الأزهر قديما منذ ثلاثين سنة قبل حصوله على جائزة نوبل سنة ١٩٨٩ م ؟ ولم لم يفصح لهم أنه يقصد أنها واقع يرمز الى عالم آخر ؟

ومن وجهة نظرى أن الاجابة على ما تقدم أن نجيب محفوظ كان قديما قبل حصوله على جائزة نوبل يحب أن يذهب النقاد فى تفسير رواياته كل مذهب ودليلى على ذلك هذا الحوار الذى أقامه نبيل فرج مع نجيب محفوظ : « ـ هل تفضل ـ المتكلم ـ نبيل ـ أن يقرأ النقد الأدبى أعمالك على مستوى الحياة الواقعية أم على مستوى المعنى الفلسفى والأبعاد الميتافيزيقية ؟

ـ المهم ـ المتكلم نجيب ـ أن يقرأ العمل الفنى على أساس ما يعنيه مضمونه وتصوره النقدى »(١٩) .

اذن فنجيب محفوظ يحب أن يفسر النقاد روايته بتفسيرات متعددة حتى ولو أدت هذه التفسيرات الى كثرة الرؤى والتصورات للعمل الفنى .

وهنا أختلف نجيب محفوظ فى أن العمل الفنى له اشعاعات فنية تجعل النقاد يرجعون النظر فيه مرة بعد مرة كى يجاوزوا الاقتراب من المعنى الذى هو فى بطن الفنان وهذه الاشعاعات الفنية التى تجعل العمل الفنى ذا عطاء متجدد وهذا هو الفن الراقى من الوجهة الجمالية حينما يضاف اليه سمو المضمون .

لا أختلف مع نجيب محفوظ فى ذلك لكن الذى دعانى الى العجب من نجيب محفوظ هو أنه يريد أن يقلل من قيمة تصور شيوخ الازهر لرواية « أولاد حارتنا » مع أن شيوخ الازهر مثلهم فى تصورهم كمثل أى قارىء من حقه أن يحكم على « أولاد حارتنا » من منطلق ما يعنيه مضمون الرواية ومن منطلق التصور النقدى الذى الازهرى أو غير الأزهرى وحجتى على نجيب محفوظ فى ذلك أنه من الذين يرون أن العمل الفنى ثمرة يشترك فى خلقها الوعى وشبه الوعى واللا وعى فهو أصدق فى التعبير عن أعماق صاحبه »(٢٠) وكان رأيه هذا قبل حصوله على جائزة نوبل وعد شيوخ الازهر أنهم بنوا تصورهم على ما رأوه فى ثنايا « أولاد حارتنا » من أحداث ورؤى زاخرة يمكن أن تكون ناقلة أفكار المؤلف نجيب محفوظ وحينما يصرح نجيب محفوظ أن شيوخ الأزهر قرأوا الرواية باعتبارها تاريخا ويدينهم فى ذلك فانه

---

(١٩) نجيب محفوظ حياته وأدبه ص ١٠٤ لنبيل فرج .
(٢٠) نجيب محفوظ حياته وأدبه ص ٤٧ لنبيل فرج .

نفسه الذى هوه على القراء حيث توجد مفاتيح داخل الرواية يمكن أن تؤدى بالقارىء الأزهرى وغير الأزهرى الى ان نجيب محفوظ يستعين بالتاريخ وحجتى على نجيب محفوظ فى ذلك أنه نفسه صرح قبل حصوله على جائزة نوبل أن روايته « أولاد حارتنا » يمكن احالتها الى التاريخ كما أنه يمكن احالتها الى الواقع ودليلى على ذلك الحوار الذى أقامه معه نبيل فرج . « ما صلة رواياتك بالتاريخ والحياة الفكرية .

ـ منن هذا السؤال أجدر أن يوجه الى الناقد ومن واقع النقد أيضا أستطيع أن أجيبك فأقول : توجد روايات ... ذات صله بالحياة أو التاريخ ولكنها لا تخلو من نوع من الشمول وهى التى تمتد من « أولاد حارتنا » وما تلاها وأنا أستطيع أن أعتبرها تاريخية من حيث يمكن احالتها الى الواقع والحياة »(٢١) .

اذن فنجيب محفوظ يفضل أن يجيب عن السؤال النقاد : فهو دائما يموه فى فنه كى يكسب فنه سمة التجدد بدليل أنه أجاب السؤال بأن فى استطاعته أن يجعل « أولاد حارتنا » تاريخية ثم رجع فى العبارة نفسها ورأى أنه يمكن احالتها الى الواقع وكلمة « يمكن » هنا هى التى جعلته يموه على محاورة نبيل فرج فلم يتضح له عن مقصده .

اذن فلماذا لم يفصح لشيوخ الأزهر عن مقصده الا بعد حصوله على جائزة نوبل ؟

هل لأنه شعر بنشوة الشهرة العالمية ؟

ربمـا ! !

وهنا لا أستطيع أن أحزم أن نجيب محفوظ يخشى التهديد لأن

---

(٢١) نجيب محفوظ حياته وأدبه ص ١٩ .

مواقفه قبل حصوله على جائزة نوبل لا تدل على ذلك فهو دائما يفتخر فى أحاديثه بأن لديه الشجاعة الأدبية التى أهلته الى تأليف أولاد حارتنا ودليلى على ذلك قول نجيب محفوظ نفسه قبل حصوله على جائزة نوبل.

« وبسبب التزامنا بالصدق صودرت لى فى مصر رواية على الأقل « أولاد حارتنا »(٢٢) .

واذا انتقلت الى شخصيات أولاد حارتنا فانك تجد شخصية « الجبلاوى صاحب الحارة وهذه الشخصية كانت مثار جدل لدى النقاد من ناحيه دلالتها الرمزية والواقعية .

وهناك مقولة استنبطها غالى شكرى من قراءاته « أولاد حارتنا » هى أنه « بالرغم من أننا سنكتشف فيما بعد أن الجبلاوى هذا هو « المطلق » بالنسبة للانسان أو هو « السر » الخالد فى حياة البشر الا أن تصوير الفنان لبداية علاقته بالحارة على أنه أول فتواتها الكبار يضعنا وجها لوجه أمام المنهج الفكرى والتعبيرى لنجيب محفوظ فى هذه الروايه »(٢٣) .

هذه المقولة تمثل نقطة الخطر فى هذه الرواية لأن صاحب هذه المقولة يريد أن يجعل شخصية « الجبلاوى » رمزا للمجهول أو رمزا للاله ودليلى على ذلك أن غالى شكرى نفسه يصرح فى موطن آخر من بحثه أن الجبلاوى رمز لله وهناك التصريح : « فبينما يصبح المطلق أو المجهول أو الجبلاوى أو الله هو الجدار النفسى الذى يعتمد عليه البشر لحل أزمتهم فى عصر الدين يتهاوى هذا الجدار « من بعد العمر الطويل » لا بيد عرفة (!!) اشارة الى انعدام فاعليته فى الواقع

---

(٢٢) نجيب محفوظ حياته وأدبه ص ٨٣ لنبيل فرج .

(٢٣) المنتمى ص ٢٤١ .

الانسانى يتهاوى الجدار الالهى ليبدأ عرفة عصرا جديدا يعتمد فيه الانسان على نفسه بمعونة السحر أو المعرفة »(٢٤) .

هذا التصريح مكمن الخطورة لأن النقد الاسلامى لا يرتضى للفكر المعلق بالفن الذى ينزع فيه صاحبه الى مصدرة مقولة الله أو يحاول أن يخلخل ايمان ايماننا بالله .

أما كون نجيب محفوظ يصور الواقع الذى ابتعد فيه الناس عن الله فان هذا الواقع الذى ابتعد فيه الناس فى شىء والنقد الاسلامى لايمنع الفنان من تصوير الواقع بشرط ان يكون هذا الواقع غير متعارض مع أساس العقيدة الاسلامية وهو الايمان بالله .

والنقد الاسلامى يشترط على الفنان الذى يصور واقع الناس الذين ابتعدوا عن أسس الدين الاسلامى أن يقدم هذا الفنان رؤيته تجاه هذا الواقع كى يتمكن النقد الاسلامى من اصدار حكمه على رؤية هذا الفنان فنجيب محفوظ مثلا صور لنا اهتمام العصر الحديث بالعلم الذى يمثله الرمز « عرفة » داخل « أولاد حارتنا » وأن الناس اهتموا بالعلم لدرجة أنهم ارتضوا أن يكون العلم أداة للوصول الى المطلق أو المجهول أو سر الكون لكن نجيب محفوظ لم يقدم لنا رؤيته الصريحة تجاه هذا الواقع سواء بالرفض أو بالقبول فى ثنايا الرواية نفسها بعيدا عن تصريحاته التى تعد خارجة عن دائرة الرواية ومن هنا كان يرضى النقد الاسلامى ، عن الفنان العقائدى الذى ينزع فى تحركه الفنى عن خلفية فلسفية عقائدية صامدة لا أعنى نزوعا جامدا يبدأ من حيث ينتهى وينتهى من حيث يبدأ بلا ملال وانما أعنى نزوعا متخانا متناميا متسقا

---

(٢٤) المنتمى ص ٢٦٠ .

يكتشف من خلال تجاربه ذاته وأبعاده ويطور من خلال مغامراته رؤيته الصحيحة لله ـ والكون ـ والانسان ٠٠ الشرط التاريخي الوحيد الذي أضعه هنا هو أن يكون مؤمنا أساسا بهذه العمد الثلاثة : الله والكون والانسان »(٢٥)

ومن منطلق هذه المقولة التي يشترط فيها الفقه الاسلامي أن يكون الفنان المسلم مستيقنا بالحقائق الثابتة عن الله والكون والانسان أقول : هل كان نجيب محفوظ نفسه يعترف صراحة أن شخصية الجبلاوى في رواية أولاد حارتنا رمز لله سبحانه وتعالى ؟

انني حينما قرأت الروايه لم أعثر على رؤية نجيب محفوظ الصريحة التي تعترف أن الجبلاوى رمز لله بمعنى أنني حاولت أولا أن أصدر حكمي مبنيا على رجوعي الى العمل الفني دون أن أنظر في محاورات النقاد مع نجيب محفوظ الشفهية فلم أعثر على مفتاح فني وفكري يصل بي على طريق الحسم أنه يقصد بالجبلاوى الله وكان رجوعي الى العمل الفني نفسه قبل رجوعي الى حوارات النقاد مع نجيب محفوظ الشفهية أنه من الأفضل للناقد أن يدخل على العمل الفني للحكم عليه من غير أن يكون متكئا على أحكام مسبقة أو جاهزة خارجة عن العمل الفني نفسه ، لأن الناقد ان دخل على العمل الفني بهذه الصفة فانه ربما يكون متأثرا بهذه الأحكام السابقة فيظلم العمل الفني ٠

وبعد انتهائي من قراءة « أولاد حارتنا » أريد أن أنقل للقارىء صور الجبلاوى التي رسمها نجيب محفوظ مثل :

---

(٢٥) في الفكر الاسلامي من الوجهة الأدبية ص ١٨٣ د/ محمد أحمد العزب ٠

« وجدنا ــ أى الجبلاوى ــ هذا لغز من الالغاز عمر فوق ما يطمع الانسان أو يتصور حتى ضرب المثل بطول عمره واعتزل فى بيته لكبره منذ عهد بعيد فلم يره منذ اعتزاله أحد وقصه اعتزاله وكبره مما يحير العقول ولعل الخيال او الاغراض قد انسربت فى انشائه على أى حال كان يدعى الجبلاوى وباسمه سميت حارتنا وهو صاحب أوقافها وكل قائم فوق أرضها والأحكار المحيطة بها فى الخلاء سمعت مرة رجلا يتحدث عنه يقول : هو أصل حارتنا وحارتنا أصل مصر أم الدنيا عاش فيها وحده وهى خلاء خراب ثم امتلكها بقوه ساعده ومنزلته عند الوالى كان رجلا لا يجود الزمان بمثله وفتوة تهاب الوحوش ذكره » وسمعت آخر يقول عنه : كان فتوة حقا ولكنه لم يكن كالفتوات الأخرين فلم يفرض على أحد أتاوة ولم يستكبر فى الأرض وكان بالضعفاء رحيما »(٢٦) .

هذه صورة من صور الجبلاوى التى رسمها نجيب محفوظ فى افتتاحية الرواية وهى صورة تتسم بسمات القوة التى لا تضارع وهو توازى قوة الاله أو الرب فهل يقصد نجيب محفظ من الجبلاوى الرمز الى الرب ؟

ان الرجوع الى بعض نصوص من الرواية توحى بأن الجبلاوى هو الذى اختلفت الناس فى وجوده وأن الناس يتصورونه رمز القوة والشجاعة وأنه صاحب الوقف والحارة والأب الأول للأجيال المتعاقبة(٢٧) ولكن نجيب محفوظ جعل أحد شخصيات القصة وهو عرفة رمزا للعلم الذى تسبب فى موت الجبلاوى : « وبدأ عرفة حزينا

---

(٢٦) الأعمال الكاملة لنجيب محفوظ ج ٦ أولاد حارتنا ص ٣٢٥ ط ــ المكتبة العلمية الجديدة بيروت .

(٢٧) راجع المرجع السابق ص ٧٣٦ .

وإنه ما كان يدور فى نفسه ثم يخطر لأحد على بال ذلك الذى اقتحم البيت غير مبال بجلاله الذى لم يتأكد من وجود جده الا عند موته الذى شذ عن الجميع ولوث يديه الى الأبد وتساءل كيف يمكن التكفير عن هذه الجريمة ؟ »(٢٨) •

ثم صور نجيب محفوظ عرفة فى اعادة الحياة الى الجبلاوى حينما قال عرفة : « شىء واحد يكفى هو أن يبلغ من السحر الدرجة التى تمكنه من اعادة الحياة الى الجبلاوى • الجبلاوى الذى قتله أسهل من رؤيته »(٢٩) •

هذه صورة من صور الجبلاوى يتقلب فيها بين الحياة والموت •

هل يقصد نجيب أن يصور انا ما آل اليه حال بعض الناس فى القرن العشرين من تقدم علمى ساحر جعلهم يفترون لدرجة أنهم ألغوا فكرة وجود الخالق بالحادهم ثم ترددوا بعد ذلك وحاولوا الرجوع الى الله مرة ثانية ؟

بمعنى أن العلم تارة يغتر وتارة يعترف بعجزه أمام الغيبيات لو كان نجيب محفوظ يقصد ذلك بحجة أنه يقصد تصوير واقع بعض الناس الذين لم يؤمنوا ايمانا يقينيا فان النقد الاسلامى لا يعنى نجيب محفوظ من الاولاء برؤيته العقدية فى ذلك بمعنى أن النقد الاسلامى يوجه الفنان الى نقد هذا الواقع ومناقشته مناقشة عقدية فى ثنايا هذا العمل الفنى نفسه •

وللفنان أن يدلى برؤيته فى هذه القضية العقدية وجها من قبل النقد الاسلامى بالحرص على اثبات وجود الله أما اذا أدلى الفنان

---

(٢٨) السابق ص ٧٣٧ •

(٢٩) الأعمال الكاملة لنجيب محفوظ ج ٦ أولاد حارتنا ص ٣٢٧ •

برؤية تشعرنا أنه يؤيد هذا الواقع الفاسد أو لم يدل برؤيته بأن التزم جانب الموضوعية أو الحياد فإن النقد الإسلامي في هذه الحالة لا يرتضي فيه هذا الموقف ولا يطمئن من ناحية عقيدة هذا الفنان ومن هنا أجد نجيب محفوظ في هذه الرواية لم يقدم لنا رؤيته العقلية الصحيحة التي توضح لنا موقفه النهائي من هذه القضية لأنه كان متذبذبا بين الجري خلف القيمة السحرية للعلم وتراجع أو فشل هذا التقدم الساحر أمام الوصـــول الى الغيبيات .

هذه صور الجبلاوي داخل روايـــة « أولاد حارتنا » واذ كـــان لنجيب محفوظ رؤية عقدية فيها فأقول : ان رؤيته تتسم بالقلق والتردد وعـــدم الوضـــوح .

ومع ذلك انني أريـــد أن أبحث مرة ثانيـــة في المـــدلول الرمزي لشخصية الجبلاوي . لكنني في هذه المرة أنتقـــل من البحث عن هـــذا المدلول جريا خلف ايماءات الرواية الى البحث عنه جريا خلف محاورات النقاد مع صاحب الرواية بمعنى أنني أريـــد أن أعثر على رضى صريح أو اعتراف خطير لنجيب محفوظ بعيدا عن نصوص « أولاد حارتنا » .

ألتقم نبيل فرج حوارا مع نجيب محفوظ اليك منه الآتي :

« تتراوح بعض شخصياتك بين أكثر من مســـتوى ودلالة مثـــل شخصية .... الجبلاوي في « أولاد حارتنا » وسيد سيد الرحيمي في « الطريق » فهي تبدو أحيانا في صورة الأدب العادي وأحيانا في صورة الاله أو الرب فإني أي مدى تحرص على وجود الكلي الشامل في الجزء العادي ؟ — أرجو — والمتكلم نجيب — أن تدلني على ذلك من خـــلال دراســـة جديرة بذلك »(٣٠) .

---

(٣٠) نجيب محفوظ حياته وأدبه ص ٦٤ ، ٦٥ .

هنا نجد نجيبا لم يجب اجابة شافية أو صريحة عن المدلول الرمزى لشخصية الجبلاوى لان نجيبا على عادته يحب أن يفسر النقاد عمله الفنى باكثر من تفسير ولا يهمه أن تتعارض التفسيرات أو تكون غير صائبة فى اجابة المدلول حتى وان كان ذلك فى أخطر القضايا العقدية التى تتصل بالاله فترك الاجابة على التساؤل التى محاورة كى يجرى خلف عمله الفنى وقد حاور سبيل فرج نجيبا فى هذه القضية بما يلى :ـ

« فى تصويرك الأب كأصل للعائلة فلامح الرب دائما فهل هذا هو تصورك للأبوة مع التسليم بسلامة المنطق والتصور ؟ ـ ثمة ـ المتكلم نجيب ، علاقة وثيقة بين الربوبية والأبوة فملاحظتك ملاحظة دقيقة وفى محلها ولكن لا ينسحب ذلك بطبيعة الحال على جميع الروايات »(٣١) .

الجديد فى هذا الحوار أن نجيب محفوظ يوافق تحاوره على أن تصوراته للاله سليمة وأن منطقه الجدلى عن الربوبية حسن لكن نجيبا عمم اجابته حينما ذكر أن تصوراته عن الربوبية لا تنسحب على جميع رواياته ومن هنا حرص نجيب محفوظ على عدم التصريح بالمدلول الرمزى لشخصية الجبلاوى حتى بعد أن حصل على جائزة نوبل العالمية فى الأدب بعد مرور ثلاثين سنة على تأليفه « أولاد حارتنا » فقد حاوره كرم جبر فى مجلة روز اليوسف فى الوقت الذى حصل فيه مؤلف هذه الرواية بما يلى :

ـ من الجبلاوى الذى كنت تقصده ؟

ـ لقد كتبت ـ والمتكلم ـ نجيب ـ القصة عام ١٩٥٩ كنت

---

(٣١) نجيب محفوظ حياته وأدبه ص ٨٩ .

أخاطب رجال الثورة بعد أن نسأل القلق الينا عن بعض الأمور التى بدأت تظهر وتنفث خروجا عن اهداف الثورة مثل حالات الثراء التى بدأت تظهر على بعض الوسطاء والانحراف عن الأهداف التى قامت من اجلها فقد قصد الثورة من وجهى احساسنا بمخاطر الانحراف ولذلك قدمت رؤية دينية وعلمية من خلال قضية الوقت وتساءلت مع من نقف الثورة مع الجماهير أم مع الفئوات وللأسف فهم شيوخ الأزهر على « نحو خاطيء » هذه هى اجابة صاحب الرواية على المدلول الرمزى لشخصية الجبلاوى نجد فيها أنه خرج عن دائرة السؤال الذى وجهه اليه محاوره حيث سأله محاوره عن المقصود بالجبلاوى •

فأجاب المؤلف بأنه غير للرواية سنة ١٩٥٩م وأنه كان يخاطب بها الثورة بسبب الذين خرجوا عن أهدافها وأنه قدم رؤية دينية وعلمية من خلال الوقت وأخيرا يوجه وصفه لشيوخ الأزهر بأنهم فهموا الرواية فهما سيئا •

هل تعد هذه الاشياء المدلول الرمزى للجبلاوى ان السؤال فى واد واجابة المؤلف فى واد آخر •

ولست أدرى لماذا لم يجب عن المقصود بالجبلاوى ؟

كى يوضح لنا أن شيوخ الأزهر قد أساءوا فهمهم للرواية لماذا غضب المؤلف من موقف الأزهر الرافض لهذا العمل الفنى الذى يمس أساس العقيدة الاسلامية بطريقة رمزية ماكرة يمكن تفسيرها على أكثر من وجه •

اننى هنا أجده يحاول أن يصادر مقولة شيوخ الأزهر فى الرواية لأنه يصفهم بأنهم لم يفهموها على الوجه الذى يريده المؤلف مع أن

نجيب محفوظ نفسه يحب أن يذهب النقـــاد فى تفســير الرواية كل مذهب.

ومن الشخصيات التى كانت مثار جدل فى هذه الرواية شخصيه جبل التى اثارت جدلا نقديا كبيرا بسبب أن المؤلف صـــورة بصـــوره لافته للنظر حيث « ان نجيب محفوظ تورط فى صـــياغة قصه الحـــارة على ضوء الحركات الروحيه الكبرى فى حياة الانسان ذلك أن المقارنة ـ التى سيضطر اليها القارىء اضطرارا ـ بين جبل وموسى ســـوف توقع بين برائن الفروع الثانويه التى جاءت عرضا فى الروايـــة كشعب الله المختار الذى يقابل آل حمدان وقصة موسى مع فرعون وزوجته وبنى اسرائيل هذه التفاصيل التى لم تجىء فى « أولاد حـــارتنا » الا خضوعا لصياغتها وفق الحركات الدينية الثلاث التى عـــرفتها المنطقة فبالرغم من أن الفنان كان يربط دائما بين الحـــارة الأسطورة والحارة المصريه الا أن طلاوة الجانب الأسطورى كانت تستهوى مخيلته الفنية فيستطرد فى تلك التفاصـــيل التى قد تضلل القارىء الا أن لهذه التفاصـــيل وجها آخر هو التفسير الذى آثـــمره المؤلف فى صياغة الأحداث فلم تكن ثمة معجزات وانما هى أقرب الى عمل الحواة(٣٢) .

هذه مقولة غالى شكرى توحى أن شخصية جبل متشابهة فى بعض النواحى مع شخصية سيدنا موسى عليه السلام مستدلا على هـــذا الايحاء بأن نجيب محفوظ كان مستثيرا بالحركات الروحية الكبـــرى فى حياة الانسان بمعنى أن نجيب محفوظ قد أخذ بعض مواقف ســـيدنا موسى مع فرعون وبنى اسرائيل من النواحى التى تتصل بالدين .

ومقولة غالى شكرى توحى أيضا بأن نجيب محفوظ هنا صـــور

---

(٣٢) المنتمى غالى شكرى ص ٢٥١ .

الجانب الأسطورى للحجارة تصويرا فائقا جعله يتصرف بمخيلته فى الصياغة للأحداث حيث جعل المعجزة قريبة من عمل الحواة .

وهنا أود أن أناقش غالي شكري من ناحية أنه ارتضى من الفنان ان يتحدث عن المعجزة على أنها من عمل الحواة فهل يدل على أن غالي شكري يرى أن شخصية جبل رمز لسيدنا موسى عليه السلام ، لأن المعجزة لا تقع الا لنبي وسيدنا موسى كان مؤيدا بمعجزة جعلت السحرة يعترفون بصدق رسالته .

ولكنني هنا أود أن أذكر رأى النقد الاسلامى فى تصويره الفنان للمعجزة على أنها من عمل الحواه .

النقد الاسلامي لا يرضى أن يتحدث الفنان عن حدث ورد فى القرآن الكريم وهو المعجزة على أنه من عمل الحواه ، لأن الفنان ان خالف الخبر الذى ورد فى القرآن فانه اما أن يكون صادقا فيما خالف فيه فيكون مخالفا للدين الاسلامى واما أن يكون كاذبا فيما خالف فيه فيفتقد عنصر الصدق الفنى فى عمله وهو الصدق الذى يصور فيه الفنان ما يعتقده وما ترتاح اليه نفسه .

أما المدلول الرمزى لشخصية جبل عند الدكتور/ محمد حسن عبدالله فانه يتضح من مقولته الآتية : سيظهر انا من خلال القراءة للرواية أنها — بالنسبة لمن يحفظ قصص القرآن ويعرف قدرا متاسبا من تاريخ الأديان توشك ألا تقدم جديدا فحوادثها وأطوارها وشخصياتها مألوفة انا وتتحرك فى الحدود التى ألفت أيضا أن نجدها فى القرآن الكريم أو كتب السيرة ولكن القرآن لم يكن المصدر الوحيد ومن ثم كانت المشكلة الأولى والخطيرة التى صرفت أنظار الكثرة من جمهور المثقفين المسلمين عن الاهتمام بهذه الرواية ونحن لا نشك أن اختيار

الأنبياء — ولو على المستوى الرمزى — لعمل فنى لا يخلو من صعوبة اجتماعية وفنية معا وبخاصة ان قصص الأنبياء أو علاقتهم بمجتمعاتهم تكاد تتشابه ففى مرحلة الاضطراب يظهر النبى يجمع حوله أنصار ضعاف وخصوم أقوياء وينتصر الحق الضعيف على الباطل الشرس وقد ساعد على خلق الاحساس بالرتابة والتكرار أن تفاصيل حياة الأنبياء — على الأقل فيما يخص جبل ورفاعة أو موسى وعيسى تكاد تكون مجهولة »(٣٣) .

هذه المقولة توضح على سبيل التصريح أن شخصية جبل رمز لسيدنا موسى عليه السلام وأن تفاصيل حياة سيدنا موسى وعيسى تكاد تكون مجهولة لكننى لا أوافق د/ محمد حسن عبد الله فى أن تفاصيل حياة سيدنا موسى وعيسى مجهولة لأن القرآن الكريم ذكر فى ثنايا كثيرا من حياة سيدنا موسى وسيدنا عيسى بما يجعلنا نقف على كيفية ولادتهما ثم موقف قومهما منهما فنى سورة القصص تجد آيات كثيرة تعرضت للحديث عن سيدنا موسى وفى سورة الشعراء تجد مواقف فرعون من سيدنا موسى وفى سورة طه تجد مواقف بنى اسرائيل من سيدنا موسى وفى سورة مريم تجد حديثا موضحا عن كيفية ولادة سيدنا عيسى وفى سورة المائدة تجد موقف قومه منه ثم مماته ، أما رأيى فى كن شخصية جبل نرمز الى شخصية سيدنا موسى عليه السلام فاننى من منطلق اطلاعى على الرواية نفسها وخاصة الجزء الذى يتصل بشخصية جبل وهو يتكون من ٨٠ صفحة أى من ص ٤١٤ الى ص ٤٩٤ من الأعمال الكاملة لنجيب محفوظ حـ٦ أولاد حارتنا أقول انهناك بعض الأحداث التى وردت فى الرواية تشير الى أن

---

(٣٣) الاسلامية والروحية فى أدب نجيب محفوظ ص ٣٠٢ ، ٣٠٣

حال الشخصية الروائية متشابهة مع حـــال شخصية سـيدنا موسى عليـــه الســـلام.

وبعض الأحداث التى حدثت للشخصية الروائية لـــم تحـــدث لشخصية سيدنا موسى عليه السلام بل لا يصح أن يوصف بفعلهـا سيدنا موسى عليه السلام .

وهناك أمثلة من الرواية نفسها توضح ذلك : « جبل انه ربيبنا بل هو ابنى لم يعرف من الدنيا الا بيتنا(٣٤) .

فالقرآن الكريم يشير الى أن سيدنا موسى تربى فى آل فرعون ..

« قال ألم نربـــك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين »(٣٥)

ونقرأ فى الرواية أن جبل قتل أحد الفتوات من غير قصد : «ما وددت أن أكون قاتلا قط رباه ما كنت أحسب أن غضبى بهذه الفظاعة »(٣٦) وفى القرآن الكريم نجد سيدنا موسى لم يقصد القتل :

«فوكزه فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضـــل مبين »(٣٧) .

أما الأحداث التى تشـــير الى أن شخصية جبل تبعد عن شخصية سيدنا موسى عليه السلام فمنها ما ورد فى الرواية : « ولمـــا لبث أن جذب ســـمعه ـــ أى ســـمع جبل ـــ ضـــوضاء اشتدت حول كشـــك حنفية مياه عمومية رأى الناس يتزاحمون أمامها ليملأوا أوعيتهم بالماء

---

(٣٤) الأعمال الكاملة لنجيب محفوظ ج ٦ أولاد حارتنا ص ٤٢٤
(٣٥) سورة الشعراء الآية ١٨ .
(٣٦) الأعمال الكاملة لنجيب محفوظ ج ٦ أولاد حارتنا ص ٤٣٥

وكان التراحم كالقتال عفا وضحايا فارتفع الصخب وتهاوت اللعنات ثم ندت صرخات رفيعة حادة من الوسط عن فتاتين غرقتا فى لجة الزحام وراحتا تتراجمان لتنجوا بنفسيهما حتى خرجتا من المعترك بصفيحتين فارغتين بدتا فى جلبابين باقعى الالوان ينسدلان على جسميهما من العنق حتى الكعبين فلم يظهر منهما الا وجهان يزهر فيهما الشباب مرت عيناه بأقصرهما دون توقف ثم ثبتتا على الأخرى ذات العينين السوداوين فلم تتحولا عنها أقبلنا نحو مكان خال قريب من مجلسه فتبين من ملامحهما شبها أخويا على تميز جاذبته بقسط أوفر من الحسن فقال جبل لنفسه منتشيا : ما أبدع هذه الملاحة لم نقع عينى على مثلها فى حارتنا »(٣٨) .

فالأحداث هنا تشير الى أن الأفعال التى فعلها جبل لا يصح — من وجهة النقد الاسلامى — أن تنطبق على سيدنا موسى عليه السلام لأن المؤلف وصف جبلا بأنه كان ينظر الى احدى الفتاتين نظرة بطيئة متفحصة وكان ينظر الى الفتاة الثانية بعينين مثبتتين تجاهها وحجة النقد الاسلامى أن الأنبياء معصومون من الوقوع فى مثل هذه الأفعال وخاصة أن القرآن الكريم وصف لنا أمانة سيدنا موسى على لسان احدى فتيات سيدنا شعيب « قالت احداهما يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الأمين »(٣٩) .

كما أن المؤلف وصف جبلا بأنه كان « منتشيا » اثر النظر الى الفتاة وهذا لا يليق بشخصية سيدنا موسى عليه السلام .

---

(٣٨) الأعمال الكاملة لنجيب محفوظ أولاد محفوظ أولاد حارتنا ج ٦ ص ٤٤٧ .

(٣٩) سورة القصص الآية ٢٦ .

والنقد الاسلامى لا ينكر التصوير الجمالى الذى صور به المؤلف شخصية جبل لكنه ينكر أن يكون هذا التصوير الجمالى مصورا لشخصية سيدنا موسى عليه السلام ، لأن التصوير الجمالى حينما يكون مسلطا باساءة للانبياء فانه لا يكون مقبولا وليس معنى ذلك أن النقد الاسلامى يفصل بين الشكل والمضمون ولكنه يرفض العمل الفنى الذى ظاهره فيه الجمال وباطنه فيه الخبث ومن هذا كان النقد الاسلامى يشترط مع جمال الشكل سمو المضمون وعدم تعارضه مع الدين وانى لا أنكر أن يتدخل الفنان بخياله فى صياغة ما استعان به من التاريخ بشرط عدم تزييف الحقائق التاريخية أو التناقض معها كما أننى لا أستبيح للفنان أن يسىء الى عقيدة المسلمين على حساب جمال الشكل أما اذا أراد الفنان أن يصور مضمونا لا يسىء الى عقيدة المسلمين فاننى لا أستبيح له أن يصور اللذة المحرمة بطريقة مغرية تدعو الى الترغيب فى تقبلها ولكننى أرتضى منه اذا أراد أن يصور اللذة المحرمة أن يصورها بصورة منفرة .

وهاك مثالا من الرواية تجد فيه أن الأحداث والأوصاف لا يصح أن يوصف بها الانبياء سواء توصل بعض النقاد الى أن المرموز اليه فى شخصية جبل هو سيدنا موسى عليه السلام أم لا كى أوضح وجهة نظر النقد الاسلامى فيه : « فانقبض قلب جبل وقال بثبات :

ـ مزاحك ـ والمخاطب البلقيطى ـ ليس لطيفا مثلك .

فضحك البلقيطى عن فم خرب وقال :

ـ لست من الرعاع الذين يعبث بهم الفتوات ولا أنت من أهل السراقة فمثلك لا يهاجر من حارته الا بسبب القتل .

فقال جبل بحدة وضيق :

ـ قلت لك . .

فقاطعه قـــائلا :

ـــ يا سيدى أن لا يهمنى أن تكون قـــاتلا خاصة بعد أن ثبتت لى شهامتك ما من رجل هنا الا وقد سرق أو نهب أو قتل ولكى تطمئن الى صـــدق قـــولى فانى أدعوك الى فنجان قهوة ونفسين فى دارى ٠

فعاود الأمـــل جبلى وقـــال :

حبـــا وشرفـــا :

فقال البلقـــــيبى فى انبســـاط :

ـــ كن ضيفى اذا شئت حتى تجد لنفسك مأوى ٠٠٠

فى دارى تقيم الثعابين فكيف تضيق عن انســـان ؟ هل أفزعـــك قولى ؟ انى حاو وستعرف عندى كيف تستأنس الثعابين(٤٠) ٠

هذه فقرة من أخطر الفقرات التى وردت فى الرواية لأن الدكتور عبد الحميد القط يعد من النقاد الذين يرون أن البلقيطى هو ســـيدنا شعيب عليه السلام حيث قـــال « وليس الدارس فى حاجة الى ادراك أن البلقيطى هو سيدنا شعيب »(٤١) ٠

هنا يتدخل النقد الاسلامى فى اصدار الحكم على التصوير الذى صور به الفنان شخصية نبى من الأنبياء على أنه حاو لأن عمل الحواة عمل قـــائم على التزييف والتمويه والخدعة لكن الأنبياء كلهم معصومون من المكر والخداع ومهمتهم تبليغ الناس ما أمرهم به الله سبحانه وتعالى والله سبحانه وتعالى أيدهم بالمعجزات ولم يتركهم يتصرفون من عنـــد أنفسهم أو يفعلون أشياء لا تليق بهم ٠

---

(٤٠) الأعمال الكاملة لنجيب محفوظ جـ٦ أولاد حارتنا ص ٤٥٠، ٤٥١

(٤١) بناء الرواية فى الأدب المصرى الحديث ص ١٦٤ د/ عبد الحميد القط ط ـ دار المعارف الطبعة الأولى ٠

كما أن النقد الاسلامي لا يرتضى أن يصور الفنان نبيا من الأنبياء فى صورة الحشاش الذى يتكلم بلغة الحشاشين لأن كلمة « نفسين » مصطلح يتعامل به أصحاب المخدرات كما أن كلمة « خرب » لا تليق فى مقام نبى الله من الأنبياء .

أما نظرة النقد الاسلامي الى هذه الفقرة المذكورة على أن الشخصيات لا يقصد بها نبي الله شعيب عليه السلام ونبى الله موسى عليه السلام فانه يرتضى بعض الصور الجمالية التى وردت فى النص فمثلا كلمة « خرب » صورت لنا صورة الرجل الكبير فى السن الذى نرى تغييرا كبيرا فى ألوان أسنانه وأضراسه حيث تجد اللون الأبيض والأسود والأصفر من آثار الكبر والمأكولات والشروبات وترى العلو والخفض فى تضاريس الأسنان الأضراس بسبب تكسر بعضها ونزع البعض الآخر .

هنا نجد المؤلف بارعا فى التصوير بالكلمة الموجبة المعبرة التى فى مقدرتها أن ترسم لنا صورة كاملة تدل على جمال الأداء الفنى وليس على جمال الشىء المصور .

كما أن النقد الاسلامى يرتضى التصوير بالكلمة التى توحى بأن الشخصية قد ارتكبت محرما حتى لو كانت هذه الشخصية غير شخصية نبى من الأنبياء فمثلا كلمة « انبساط » من عبارة نجيب محفوظ : « فقال البلقيطى عن انبساط » ان هذه الكلمة صورت لنا آثار الرضا والنشوة على وجل الشخصية من آثار ادخان هنا لا يرتضى النقد الاسلامي هذا التصوير الجميل لأنه نقل لنا صورة مبطنة بتصرفات لا يرتضيها الاسلام حتى لو كانت هذه الشخصية من البشر العاديين غير الأنبياء ولا يقبل الاعتذار لنجيب محفوظ هنا بأنه يصور الواقع كما هو لأن تصوير الواقع فقط دون التدخل برؤية

من الفنان توضح لنا مدى رفضه لهذه التصرفات ليس مرضيا فما بالك حينما صورها على وجه يرغب النفس الى اشتهائها وربما كان السبب فى عدم تقبل شيوخ الأزهر هذه الرواية هو تصوير الشهوة المحرمة على انها مشتهاه ولم يصور رؤيته المنفرة لهذه الشهوة المحرمة ولذلك غضب نجيب محفوظ من شيوخ الازهر ودليلى على ذلك ما نقله كرم جبر فى مجله روز اليوسف فى الوقت الذى حصل فيه نجيب محفوظ على جائزة نوبل العالمية من أقوال لنجيب محفوظ « قالوا لهم ــ وضمير الغائب هم شيوخ الأزهر ــ ان نجيب محفوظ يقصد بالاسماء الواردة فى انفسة الآنبياء وقرأوها على هذا الاساس فجبل ليس ابن حارة الجبلاوى وانما هو سيدنا موسى ولما كان جبل يمشى فى الحاره حافى القدمين ويدمن الحشيش ففى هذا الاسقاط اهانة لسيدنا موسى وقس على ذلك بقية الأحداث والشخوص من وجهة نظر شيوخ الأزهر هذه مقولة نجيب محفوظ التى يرد بها على شيوخ الأزهر نوحى بأن شخصية جبل ليس المقصود بها نبى الله موسى وانما المراد بها ابن حارة الجبلاوى هذا الذى استنبطه من نجيب محفوظ ، لأنه لم يصرح لنا على وجه الاعتراف المراد الحقيقى بشخصية جبل وفى الوقت نفسه يكر على شيوخ الأزهر أنهم تعاملوا فى الرواية على أن شخصية جبل ترمز الى سيدنا موسى عليه السلام ، لأنه غضب من شيوخ الأزهر فى ذلك .

وهنا ألمح تناقضا فى مواقف نجيب محفوظ من النقاد لأنه ارتضى من د/ محمد حسن عبد الله أن يتعامل مع شخصية جبل على أنها رمز لسيدنا موسى عليه السلام (٤٢) ولم ينكر عليه ذلك وحجتى على ذلك الرسالة التى أرسلها نجيب محفوظ الى الدكتور/ محمد حسن عبدالله

---

(٤٢) راجع هذا التعامل فى الاسلامية والروحية فى أدب نجيب محفوظ ص ٣٠٣ .

يعقب قراءة نجيب محفوظ كتاب الاسلامية والروحية فى أدب نجيب محفوظ المرسل اليه هى :

« ... فقرأته بشغف ودون توقف وأشهد بأنه جديد فى نظرته ومبتكر فى رؤياه فدليل قاطع على استقلال فكركم وسمو هدفكم ولم أجد تناقضا بين أحكامكم وبين نبض قلبى »(٤٣) .

ولم يعترض نجيب محفوظ فى هذه الرسالة على ما توصل اليه الدكتور/ محمد حسن عبد الله من أن المراد بجبل هو سيدنا موسى عليه السلام . لماذا لم يغضب نجيب محفوظ هنا ؟ هل لأن الدكتور/ محمد حسن عبد الله ليس من شيوخ الأزهر ؟ ربما .

وربما كان السبب هو أن الدكتور/ محمد حسن عبد الله تعجب من اعتراض الأزهر على هذه الرواية حيث قال : « لماذا اعترض الأزهر على نشر هذه الرواية فى مصر حتى اليوم ؟ والحق أننا أمام عمل فنى وفكرى جاد حاول أن يستنطب جانبا من تاريخ البشرية هو أهم جوانب هذا التاريخ وأن يركب من جزئياته المقررة رواية ذات دلالة مستوحاة من أحكام رابطة السببية وتدافع الأحداث فى اطار تيار معين تحدث القرآن عن معالمه وتلقاط الضوء فيه وحاول الأديب الروائى أن يقرأ هذا التيار قراءة موضوعية لم تكن أبدا على نقيض مع العبرة التى سجلها القرآن فى أعقاب كل قصة »(٤٤) .

ربما كان موقف الدكتور / محمود حسن عبد الله هنا دافعا لعدم غضب نجيب محفوظ لانه كان مخالفا لشيوخ الأزهر فى نظرته العامة

---

(٤٣) الاسلامية والروحية فى أدب نجيب محفوظ ص ١٥ ، ١٦ .
(٤٤) الاسلامية والروحية فى أدب نجيب محفوظ ص ٣٠٢ .

للروايـــة لماذا لم يرسل نجيب محفوظ رسالة الى شيخ الأزهر يوضح فيها ما يقصد من المدلول الرمزى لشخصيات «أولاد حارتنا» ؟ حينما اعترض عليهـــا الأزهـــر •

أو لماذا لم يرد على شيوخ الأزهر على صفحات جريدة الاهرام المصرية سنة ١٩٥٩م التى مكنته من نشر روايته فى حلقات ؟

خاصة أنه عرف أن روايته أثارت هزة عامة لأنها طرقت ما يتصل بعقيده المسلمين مكان يجدر به أن يبعد نفســـه من كل هذه المشـــاكل التى أوقع نفسه فيها ومن هنا ترك نجيب محفوظ النقاد يفسرون رموز الشخصيات بما يتراءى لهم من تصورات للروايه فالدكتور/ عبدالحميد القط يذكر أن شخص رفاعة الذى ورد فى الرواية « يرمز لسيدنا عيسى عليه السلام فى الحلقة التالية ـــ أى تالية جبل ـــ فى مرحلة حاسمة من حياته وحيـــاة الحارة »(٤٥) •

وهنا أذكر حوارا من الرواية بين رفاعة وزوجته كى أعرضه على حكم النقد الاسلامى :

ـــ فتفكرت قليلا فى حيرة ثم قالت :

ـــ عندى حشيش طيبا •

ـــ جربته ـــ والمتكلم هنا رفاعة ـــ فوجدتنى لا أطيقه (٤٦) •

فكلمة جربته تفيد أن رفاعة ذاق طعم الحشيش أكثر من مـــرة صحيح أن نجيب محفوظ صور رفاعة فى صـــورة العارف عن الحشيش لكن النقد الاسلامى لا يرتضى أن يتحدث الفنان بمـــا لا يتناسب مع

---

(٤٥) بناء الرواية فى الأدب المصرى الحديث ص ١٦٠ •

(٤٦) الأعمال الكاملة لنجيب محفوظ ج ٦ أولاد حارتنا ص ٥٣٤ •

شخصية المرموز اليه ان كان يقصد الفنان برفاعه عيسى عليه السلام أو اذا كان لا يقصد به عيسى عليه السلام فان النقد الاسلامى ينظر فى طريقة عرض المؤلف الحدث فان كانت طريقة العرض تغرى المتلقى بالوقوع فى اشتهاء الحشيش فان النقد الاسلامى ينظر فى طريقة عرض المؤلف الحدث فان كانت طريقة العرض تغرى المتلقى بالوقوع فى اشتهاء الحشيش فان النقد الاسلامى يرفض هذه الطريقة الفنية أما ان كانت طريقة العرض تنفر من الوقوع فى اشتهائه فهى مقبولة ونجيب محفوظ لا يهتم بتنفير المتلقى من الحشيش فطريقته غير مقبولة •

وأما شخص قاسم داخل الرواية فانه عند الدكتور/ عبد الحميد القط « يرمز لسيدنا محمد — ﷺ — »(٤٧) •

لكنه ينقد صاحب الرواية بما يلى : « ويتضح وصف المؤلف الهازل للهجرة النبوية من قوله : « ••• وعجب عم شنطح مبيض النحاس من اختفاء صادق وكان سعى اليه فى داره فلم يجد له ولا لأحد من ذويه أثرا وعبدالفتاح الفسخانى كذلك لم يجد لعامله عجرمة أثرا فى الحارة ولم يعد ابو فصاده الى مقلى حمدون ولم ينذره بغيابه وأين حمروش ؟ تال حسونة الفران انه اختفى كأنه نيران الفرن التهمته » •

وهذا الهزل لا شك يقلل من استجابة القارىء للبعد الرمزى كما يحول دون تقبل بعدها الواقعى فالقارىء ولا شك يجد نفسه موزعا بين المستويين وتتحول الرمزية الى عملية آلية لا جدوى منها »(٤٨)•

---

(٤٧) بناء الرواية فى الأدب المصرى الحديث ص ١٦٠ •

(٤٨) بناء الرواية فى الأدب المصرى الحديث ص ١٦٥ وراجعت نفس الرواية •

ومن هنا نجد النقد الاسلامى لا يرتضى هذا النوع الرمزى الذى يستخف فيه صاحبه بأحداث الرواية ويعمل فيهـا على تضـليل المتلقى فيفقد « القارىء المتعة بثبات الصورة »(٤٩) .

وتأتى الحلقة الأخيرة فى الرواية ممثلة فى شخصية عرفة الـذى يرمز الى العلم حيث صنع عرفة أداة انفجارية كى يقضى بها على الفتوات وهنا اقتطع من الرواية الحـوار الذى دار بين حنش وعرفة : « فسأله عرفة بوجـه منقبض :

ـ ماذا قالـوا عن الانفجـار ؟

ـ وصف الذين كانوا يطاردونك ما وقع فلم يصـدقهم أحد لكنهم وقفوا ذاهلين أمام الجراح التى أصابت الوجوه والأعناق وعادت حكاية الانفجار تغطى على مقتل سعد الله .

فقال عرفة : قتل فتوة الحارة »(٥٠) .

ماذا يقصد نجيب محفوظ من مواقف عرفة ؟ أو العلم ؟

علق المؤلف « آمالا كبيرة ـ على العلم ـ فى تغيير وجه الحـارة والقضاء على الظلم الاجتماعى فيها واذا كان من حقنا أن ندلى برأينـا الخاص فاننا نشارك نجيب محفوظ فى ثقته بالعلم وأملـه أن يحـل مشكلات الانسان اليوم ومستقـبلا »(٥١) .

هذه مقولة الدكتور/ محمد حسن عبد الله يؤيدها فى موطن آخر

---

(٤٩) التى استشهد بها الدكتور / عبد الحميد فى الأعمال الكاملة لنجيب محفوظ جـ ٦ ص ٦٤٣ ، ٦٤٤ فى أولاد حارتنا .

(٥٠) الأعمال الكاملة لنجيب محفوظ جـ ٦ أولاد حارتنا ص ٧٤٠ .

(٥١) الاسلامية والروحية فى أدب نجيب محفوظ ص ٣٢١ .

من كتابه بصفة للعلم الذى يقصده حيث يقصد أن « العلم المؤمن هو المطلوب »(٥٢) .

وهذا الوصف الذي وصف به العلم هذا هو الذى ارتضيه لأن العلم وحده لم يستطع أن يحل مشكلات العالم ولا يستطيع فى المستقبل الا اذا كان هذا العلم موجها من ناحية تعاليم الاسلام التى لا تتعارض مع التقدم العلمى الذى يسير فى ظلال الايمان بالله ورسوله

بمعنى أن العلم اذا لم يكن نابضا بروح الاشعاعات الروحية الاسلامية فانه سوف يتحول الى ميكانيكية جافة أو سوف يتحول الى غرور مدمر .

هذه هي الرؤية الاسلامية فى رواية « أولاد حارتنا » لنجيب محفوظ من الوجهة الأدبية جعلت العمود الفقرى فيها هو رسم طريقة نجيب محفوظ فى رسم الشخصيات المتفاعلة مع غيرها أو مع الأحداث فى ثنايا الرواية .

ذلك أن هذا العمود الفقرى الذى أقصده هنا يشترك معه عن طريق الاستلزام طريقة المؤلف فى صياغة الحدث والأسلوب ثم بينت وجهة نظر النقد الاسلامى فيها من الوجهة الأدبية ومن هنا لم يكن فى ذهنى الفصل بين اطار الرواية ومحتواها الا بالقدر الوصفى الذى تستلزمه الدراسة فى الوجهة الأدبية بمعنى أننى حينما ذكرت أن النقد الاسلامى تارة يرفض المضمون ويرتضى الجمال الشكلى وتارة يرفض الجمال الشكلى ويرتضى المضمون فاننى أقصد من ذلك الوصف فقط .

وأخيرا أقول : « ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا » .

اعداد

دكتور / محمد أحمد محمد حسن مخلوف

---

(٥٢) السابق ص ٣٢٦ .